

مقاربة نظرية لمفهوم العنف الأسري
عواطف عطيل لموالي
قسم علم الاجتماع
جامعة الطارف

Abstract

This paper attempts to investigate the interrelationship between the concept of violence and its related theoretical notions. It studies sociological, psychological and psycho-sociological theories related to violence focussing mainly on domestic violence.

ملخص

نتناول في هذه المقالة التعريف بالعلاقة المتداخلة بين مفهوم العنف والمفاهيم اللصيقة به، مركزين على العنف الأسري كما ورد في التراث النظري. ونظرا لطبيعة الموضوع فقد اكتفينا بعرض النظريات العلمية التي تتدرج ضمن المقاربات السيكولوجية والسوسيولوجية والسيكوسوسيولوجية، والتي نراها الأقرب والأنسب.

Keywords: violence, domestic violence, aggression.

الكلمات المفتاحية: العنف، العنف الأسري، العدوان.

مقدمة:

شكل العنف و لازال، محورا بحثيا هاما لدى العديد من المشتغلين في حقول المعرفة، التي تتخذ من السلوك الإنساني موضوعا لها، فعرفه البيولوجي بأنه خاصية غريزية وراثية تستهدف تدمير الآخر، ووصفه الأنثروبولوجي بأنه سلوك بدائي غير متحضر، ووسمه السيكولوجي بأنه سلوك عدواني يستهدف إلحاق الأذى بالآخرين، و ذهب علماء الاجتماع إلى اعتباره ظاهرة اجتماعية مرضية، تهدد تماسك البناء العلائقي للمجتمع. إن اختلاف المواقف النظرية للعلماء والباحثين، حول تحديد مفهوم واضح و دقيق للعنف، يخبرنا بأن العنف هو مفهوم هولي، شديد التعقيد ومتداخل العوامل، الأمر الذي يجعله يتمظهر في أشكال متعددة.

فأفعال العنف قد تتم بشكل رمزي وجسدي، داخل مختلف مؤسسات المجتمع و تمارس على مستويين فردي وجماعي، لذلك لا يمكن أن يخلو مجتمع إنساني من أحد أشكال العنف، لاسيما ما يعرف بالعنف الأسري، والذي يعد في تقديرنا الأشد خطرا بين مختلف أشكال العنف الممارس في المجتمع، نظرا لأهمية البيئة الأسرية نفسها، في تكوين الشخصية الاجتماعية للأفراد الجدد، و تحقيق التكامل الانفعالي و العاطفي لهم، مما يمتن النسيج العلائقي بين الأفراد داخل أسرهم و مجتمعهم، على حد سواء.

لكن المؤسف أن تصبح الأسرة باعتبارها أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية في المجتمع، حقلا خصبا لإنتاج سلوك العنف و الممارسات العنيفة، بدلا من أن تسهم في التقليل من حدتها و انتشارها، و الأدهى من ذلك أنها أخذت تتنامى بشكل ملفت للنظر في العقود الأخيرة، بفعل عوامل التغير الاجتماعي المتعددة، التي فرضت تكوين أشكال جديدة من العلاقات والفكر والسلوك، عملت على نمو القيم المادية، و الاتجاهات البراغماتية والفردانية، التي عمقت الاستقلالية الذاتية للفرد، وأضعفت ولاءه للجماعة، مما أدى إلى ضعف الروابط الأسرية، و بالتالي تفكك العلاقات الأسرية، وما ترتب عنها من ظواهر الاغتراب، الهامشية، التنافس، صراع الأدوار والقيم، والتي أصبحت تمثل أحد أهم وجوه العنف الأسري الممارس في المجتمع الحديث.

وعليه يتضح لنا أن ظاهرة العنف الأسري تسير نحو التعقد، تباعا لتعقد الحياة الاجتماعية نفسها، و هي لذلك ظاهرة شائكة متعددة الوجوه، و أن البحث حول استراتيجيات فعالة وناجعة للعلاج و الوقاية منها، يقتضي منا في المحل الأول، تحديد مفهوم الظاهرة و العوامل المفضية إلى ظهورها، من خلال التراث النظري المنتج حولها. فما هو إذن مفهوم العنف الأسري؟ و ما هي عوامله؟ و ما هي النظريات العلمية التي قاربت مفهوم العنف الأسري؟ وكيف نظرت له ؟

1- مدخل مفاهيمي :

جرى العرف العلمي أن يتم التدرج في عرض المفاهيم و مساهلتها، في البدء بالمفاهيم المركزية، حتى يتسنى فهم واستيعاب و تحديد دلالات المفاهيم المنبثقة عنها، طالما أن علاقة هذه الأخيرة بالمفاهيم المركزية، هي علاقة الجزء بالكل، وحتى يفهم الجزء لابد من أن يكون الكل واضحا، و بناءا على ذلك، سوف نستعرض أولا مفهوم العنف باعتباره المفهوم المركزي الذي انبثق عنه مفهوم العنف الأسري، إلى جانب عرض المفاهيم الأخرى للصيقة به، والمتداخلة معه، و التي تمثل صورا له، قصد إزالة الضبابية حول المفهوم، واستبعاد جوانب الخلط بينه و بين هذه المفاهيم.

1 1 مفهوم العنف و المفاهيم للصيقة به:

1 1 1 الدلالة اللغوية لمفهوم العنف :

تعني مفردة عنف في لسان العرب " الخرق بالأمر و قلة الرفق، وهو ضد الرفق، ويقال عنف به وعليه يعنف عنفا وعنافة و أعنفه تعنيفا، وهو عنيف إذا لم يكن رفيقا في أمره، وإعتنف الأمر : أخذه بعنف، و اعنف الشيء: أخذه بشدة"⁽¹⁾.

أما القاموس الفرنسي (لاروس - Larousse) فإنه ينسب مفردة عنف Violence إلى أصل لاتيني Violentia وتعني : "خاصية من يظهر أو ينتج أفعاله بقوة هوجاء، شديدة". كما تشير إلى "الشدة، الفظاظة، الخشونة و الإرغام". و تدل أيضا على " آداء عمل ما بطريقة قسرية".

كما يرجع كذلك فعل عنف إلى أصل لاتيني (فيولار - Violar) و يعني : "الانتهاك، الاغتصاب، الخرق، المخالفة، التعد على القانون و النظام"⁽²⁾.

و تشير مفردة عنف في القاموس الفرنسي المعاصر (روبار - Robert) إلى الدلالات التالية:

- " التأثير على فرد ما و إرغامه على العمل دون إرادته، وذلك باستخدام القوة، أو اللجوء إلى التهديد".

- " العنف هو الفعل أو العمل الذي من خلاله يمارس العنف".

- " هو القوة القاهرة للأشياء".

- " استعداد طبيعي للتعبير ضد المشاعر أو العواطف".

- " السمات العنيفة لفعل ما" (3).

وتعني مفردة عنف Violence في القاموس الانجليزي (او كسفورد - Oxford)

- " سلوك عنيف يراد به إلحاق الأذى بالآخرين و قد يصل إلى حد القتل" (4).

و تشير كذلك إلى انه " فعل إرادي متعمد بقصد إلحاق الضرر و التلف أو تخريب أشياء أو ممتلكات أو منشآت خاصة عن طريق استخدام القوة" (5).

إن الدلالة اللغوية لمفردة عنف، تتحدد في كونه، نمطا سلوكيا إنسانيا، يقوم على الشدة في معاملة الآخر، الذي قد يكون فردا، جماعة، أشياء مادية ومعنوية (قوانين مثلا)، بغرض إلحاق الأذى به، أو الإضرار به، أو خرقه.

1 1 2 اتجاهات التعريف بمفهوم العنف :

يختلف مفهوم العنف بحسب التفسيرات المنتجة في مختلف الحقول المعرفية حوله، فالتفسير السيكولوجي للعنف يختلف عن التفسير السوسيولوجي له، و أن تفسير هذا الأخير، مغاير للتفسير البيولوجي، الأمر الذي أفرز اتجاهات متعددة حول تحديد مفهوم العنف، يمكن حصرها في اتجاهين، أحدهما يعتبره نمطا سلوكيا، والآخر يعتبره ظاهرة .

أولا : العنف نمطا سلوكيا

يعرف أصحاب هذا الاتجاه العنف بأنه:

" فعل يتضمن إيذاء الآخرين، يكون مصحوبا بانفعالات الانفجار و التوتر، و كأى فعل آخر، لابد و أن يكون له هدف يتمثل في تحقيق مصلحة معنوية أو مادية" (6).

و يشير شارل بودوان C.Baudouin إلى أن " الفعل الذي يستهدف ذاته إلى ابعاد مدى، هو فعل عنف" (7). كما عرفه آخرون من منطلق أفعال العنف المعروفة في الوقت الحاضر، و التي يمكن مشاهدتها، على النحو التالي: " الاستعمال غير القانوني لوسائل القسر المادي و البدني، ابتغاء تحقيق غايات شخصية أو جماعية، على أنه في جوانبه النفسية، يحمل معنى التوتر و الانفجار، تسهم في تأجيحها داخل الفرد أو الجماعة، عوامل كثيرة أبرزها، هذا العالم الحديث المنقسم على نفسه، و الذي يعيش فيه إنسان اليوم، عالم التناقضات السياسية، الاقتصادية والعقائدية" (8) .

ثانيا : العنف ظاهرة اجتماعية

يعتبر العنف من موضوعات علم الاجتماع، بوصفه ظاهرة اجتماعية مرضية تهدد تماسك البناء العلائقي للمجتمع، من معانيه: "الإيذاء باليد و باللسان، بالفعل أو بالكلام، في حقل التصادم مع الآخر" (9). كما يذهب علماء الاجتماع إلى اعتبار العنف " ظاهرة اجتماعية، تتكون من عدد من أفعال مجموعة من الفاعلين، تحدث في محيط معين، و تكون لها درجة من الاستمرارية، بحيث تحتل فترة زمنية واضحة" (10). تماما مثل حالات الحرب التي شهدتها العديد من المجتمعات الإنسانية في حقبات تاريخية متباينة.

ونضيف إلى هذا التعريف، أن العنف ظاهرة اجتماعية قديمة، ثابتة في التاريخ الإنساني، تعود إلى الوجود الإنساني نفسه، غير أنها تخضع إلى محددات الأنماط الثقافية التي تسود المجتمعات، فما يعد عنفا في مجتمع أو جماعة اجتماعية معينة، قد لا يعد كذلك في أخرى. لذلك تشكل نسبية العنف هذه، أشد الصعوبات التي تعترض عالم الاجتماع في تعريفه لمفهوم العنف.

وسواء عرف العنف باعتباره نمطا من أنماط السلوك أو ظاهرة اجتماعية، فإنه قد شكل و لا زال أحد الموضوعات الهامة المتداولة في مختلف حقول المعرفة، و اختلفت تباعا لذلك التفسيرات المنتجة حوله، فكانت استخدامات مفهوم العنف متعددة، مما يفسر ارتباطه و تداخله مع مفاهيم أخرى، أصبحت لصيقة به، لدرجة أنه بات من الصعب فهم العنف، دون التطرق إليها، لذلك نرى من المهم تناولها وعرضها، من أجل صياغة واضحة و دقيقة لمفهوم العنف. و من أهم هذه المفاهيم نذكر:

- العدوان : Aggression / Agression

العدوان مفهوم سيكولوجي، استخدمه كذلك علماء البيولوجيا، و يعد أكثر المفاهيم تداخلا مع مفهوم العنف، يعرفه عدد من علماء النفس بأنه : " نمط من أنماط السلوك، ينتج عن حالة إحباط، و يكون مصحوبا بعلامات التوتر، ويحتوي على نية مبيتة لإلحاق ضرر مادي أو معنوي بكائن حي، أو بديل عن كائن حي"⁽¹¹⁾. ويعرف كذلك بأنه: " موقف يهدف إلى إيذاء الغير، و يشبع العدوان عند العققلين من مشاعر الغضب، أو النقص، أو الحرمان، يحاول صاحبها التعويض عنها بالسلوك العدواني"⁽¹²⁾.

في حين يعرفه شابلين Chaplin بأنه : " هجوم أو فعل معاد موجه نحو شخص ما، أو شيء ما، كما يعني الرغبة في الاعتداء على الآخرين، أو إيذائهم ، أو الاستخفاف بهم، أو السخرية منهم، بأشكال مختلفة، بغرض إنزال أضرار، أو عقوبة بهم، أو إظهار التفوق عليهم"⁽¹³⁾.

من خلال التعريفات المدرجة سابقا، يتبين لنا أن العدوان هو سلوك إنساني عنيف، يحدث نتيجة لعوامل نفسية، يربطها العديد من علماء النفس بحالة الإحباط، و باعتبار العنف ظاهرة اجتماعية، فهو مركب من عوامل متعددة، من بينها العامل النفسي، معنى ذلك أن " كل عنف يحمل قسطا من العدوانية، و لكن ليست كل عدوانية تظهر بمظهر خارجي عنيف"⁽¹⁴⁾، لأنه في كثير من الحالات لا يرد الفرد بعدوان، إما خوفا من العقاب، أو لعدم وضوح الرؤية بالنسبة لمصدر الإحباط، فيوجه العدوان داخليا نحو الذات.

كما يحمل العدوان نية مبيتة في إلحاق الأذى بالآخرين، لكن العنف قد لا يرتبط بنوايا معينة، لان أفعال العنف قد تكون استجابات ناتجة عن الظروف المختلفة التي يمر بها الفاعل العنفي .

الإكراه : Compulsion /

يعرف الإكراه بأنه: " استخدام الضغط أو القوة استخداما غير مشروع، أو غير مطابق للقانون، من شأنه التأثير على إرادة فرد ما، و الإكراه من الناحية القانونية، إذا وقع على من تعاقد، يكون سبب في بطلان التعاقد"⁽¹⁵⁾.

ويتجاوز آخرون مسألة الشرعية في استخدام القهر، فيعرفونه بناء على حالة الفرد المكروه بأنه: "استجابة بسلوكية للقلق، حيث يشعر الفرد بأنه مجبر على فعل أو مجموعة أفعال، لا يرضى عنها، و قد يكون الفاعل

متفهما لفعله، و مصرا على أنه ضروري، أو يكون معترفا بخطورة هذا الفعل، و لكنه لا يستطيع تعديل سلوكه هذا⁽¹⁶⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المشتغلين في حقل العلوم الاجتماعية، يعرفون العنف بأنه إكراه⁽¹⁷⁾، وكأن أحد المفهومين هو مرادف للآخر. غير أن ثمة وضعيات علائقية معينة يمكن أن تساعد على الفصل بين المفهومين، وهو ما ذهب إليه دوركايم E. Durkheim، إذ فرق بين استخدامات كلا من مفهومي الإكراه والعنف، من خلال العلاقة (مجتمع- فرد ، فرد-مجتمع)، فهو يرى أن "كل مجتمع إنساني ، يمارس الإكراه على أفراده، من خلال إلزامهم ومطالبتهم ، بالإنصياع و الإمتثال لمعاييرهم، وهذا من أجل المحافظة على كيانه، وتماسكه، واستمراره، غير أن رفض الأفراد للإكراه الممارس عليهم، يعتبر بالنسبة إليه عنفا"⁽¹⁷⁾.

و بذلك فإن دوركايم، يستخدم مفهوم إكراه للدلالة على علاقة المجتمع بالفرد، و يستخدم مفهوم عنف للدلالة على علاقة الفرد بالمجتمع، و حسب دوركايم ، فإن "عنف الأفراد هذا يعتبر تمردا"⁽¹⁸⁾.

التمرد : Sédition / Rébellion

قام أحمد زكي بدوي بترجمة مفهوم التمرد من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية، مستخدما مفردة فتنة للدلالة عليه، و يرى أن هذا الاصطلاح يطبق على " الأعمال التي تتجه إلى إقلاق حالة الإستقرار العام الداخلي في البلاد، و تتسم بعدم الولاء والإستياء الشديد نحو الحكومة، و التحريض على التمرد، وذلك عن طريق الأفعال والكلام، التي لاتصل إلى درجة الخيانة، ولا تكون مصحوبة بعنف"⁽¹⁹⁾. قد يكون العنف المقصود هنا التهديد باستخدام القوة ، دون اللجوء الفعلي لها .

في حين جعله آخرون مرادفا لمفهوم الثورة، التي تعني "تغير مفاجئ و عميق في النواحي السياسية والاجتماعية في بلد ما، وقد يتم عن طريق العنف أو استخدام القوة الشرعية، ولا تتبع في إحداثه الوسائل المقررة لذلك في النظام الدستوري للبلاد. ويستخدم تعبير الثورة في الوقت الحاضر استخداما عاما للدلالة على الحركة التي تؤدي إلى تغير جذري في المجتمع، كالتغيرات الصناعية والثقافية والعلمية وغيرها، التي قد لا تتم فجأة وبالعنف، ولكنها تستغرق فترة زمنية نسبية"⁽²⁰⁾.

أما ألبير كامو A. Camus فقد عرف مفهوم التمرد بأنه : "حركة تستند إلى رفض قاطع لتعد لا يطاق، و إلى يقين مبهم بوجود حق صالح، و بصورة أصح إلى اعتقاد المتمرد أن (له الحق كي أن...) "⁽²¹⁾، و يضيف أن التمرد يتمظهر في "إحساس الفرد المتمرد بأن فردا آخر يبالغ في بسط حقه، و يجاوز الحد الذي اعتبارا منه يجابهه، و يحده حق آخر "⁽²²⁾.

و يعرف كذلك بأنه: "رفض لكل من الوسائل و الأهداف، فالمتمرد يحاول أن يخلق نظاما جديدا"⁽²³⁾. مما تقدم نستخلص أن التمرد هو حالة رفض للأوضاع السائدة، و المطالبة بتغييرها، باستخدام القوة أو التهديد باستخدامها، تحقيقا لأهداف سياسية و اجتماعية معينة.

الإجرام، الجريمة: Crime

يمثل الإجرام مفهوما هاما لدى مختلف الحقول المعرفية، التي تهتم بدراسة السلوك الإنساني، لاسيما الحقل السوسيولوجي، السيكولوجي، و القانون، ويعتبر الإجرام، أقصى درجات السلوك العنفي في الإضرار بالآخر، و قد يصل في أحيان كثيرة، إلى إنهاء حياته.

يعرفه علماء الاجتماع بأنه : " كل فعل يعود بالضرر على المجتمع، و يعاقب عليه القانون، والجريمة ظاهرة اجتماعية، تنشأ عن اتجاهات و ميول وعقد نفسية، و عن التأثير بالبيئة الفاسدة، كما قد تنشأ عن نقص جسمي أو ضعف عقلي، أو اضطراب انفصالي، و تختلف الأفعال التي تجرم من مجتمع إلى آخر "(24).
فالإجرام إذن مفهوم نسبي، لأنه يخضع لمحددات ثقافية على غرار مفهوم العنف، فما يعد جريمة في مجتمع معين، قد يعد عملاً بطولياً في آخر.

و تنقسم الجرائم طبقاً لأحكام القانون إلى ثلاثة أقسام :

أ-المخالفات Violations وهي أبسطها.

ب-الجنح Misdemeanors

ج-الجنايات Felonies

وتتدرج العقوبات طبقاً لخطورة الجريمة، و قد تبدأ بالغرامة المالية Fine و تنتهي بعقوبة الإعدام Capital punishment (25).

كما عرف دوركايم الجريمة بأنها : " كل فعل معاقب عليه قانوناً "(26).

وتعرف كذلك بأنها : " سلوك ينتهك القواعد الأخلاقية، التي وصفت لها الجماعة، جزاءات سلبية ذات طابع رسمي و يمكن أن نجد معالجات بالغة القيمة حول الاستخدامات القانونية و العامة لمصطلح الجريمة في الملاحظات التي ذكرها لورد اكين Lord Aktin حينما ذهب إلى انه يمكنه تحديد نظام التشريع الجنائي، عندما نتعرف على الأفعال التي تقرر الدولة خلال فترة معينة من الزمن، أنها تدخل في عداد الجرائم، و أن من يرتكبون هذه الأفعال، يجب أن تطبق عليهم العقوبة "(27).

ومما هو جدير بالذكر، أن أنماط السلوك المضادة للنظام الاجتماعي و الأخلاقي ليس من الضروري أن تدخل ضمن نطاق الجريمة، بل يمكن اعتبارها تمرداً. هذا، و نضيف أن الفاعل الإجرامي قد يرتكب الجريمة في حق الآخر كالسرقة، القتل .. ، أو في حق نفسه مثل الإدمان على تعاطي المخدرات أو الانتحار..الخ.

من خلال ما تقدم نستخلص أن المفاهيم المدرجة، تمثل وجوهاً متباينة للممارسة العنيفة في المجتمع الإنساني، التي يمكن أن تبدأ عند الفرد بالسلوك العدواني المرتبط بالعوامل النفسية لديه، و بفعل الإكراه أو القهر الممارس من طرف الأفراد أو المجتمع عليه، قد يتطور هذا السلوك العدواني إلى حالة تمرد، و الذي يمكن أن يتحول في أحيان ما إلى سلوك إجرامي عندما يبلغ مده، إذ يمثل الإجرام أقصى درجات السلوك العنفي، لأنه قد يؤدي إلى إنهاء حياة الآخر، أو حياة الفاعل الإجرامي نفسه .

وبصفة عامة يمكن أن ندرج هذه المفاهيم ضمن الممارسة العنيفة، لأنها تهدف بشكل واضح إلى إلحاق الأذى بالآخر و الإضرار به، بوسائل و أساليب مختلفة، تستند إلى استخدام القوة أو التهديد باستخدامها تحقيقاً لأغراض ومآرب معينة.

1-2 مفهوم العنف الأسري:

يمثل العنف الأسري، احد أهم أشكال العنف الممارس في المجتمع، من حيث القدم و الانتشار، والأخطر بينها، لأنه يمارس داخل الأسرة، التي تعد أهم مؤسسات المجتمع، باعتبارها البيئة الاجتماعية الأولى التي تؤمن عملية التنشئة الاجتماعية للأفراد الجدد فيه، و المؤسسة الأولى المسؤولة على تكوين شخصيتهم الاجتماعية، إذ

تتيح لهم إمكانية الاتصال و التفاعل الاجتماعي وتكوين العلاقات مع الآخرين، مما يحقق لهم الإدماج في الحياة الاجتماعية، وإشباع حاجاتهم المتعددة (النفسية، العاطفية، الإقتصادية، الاجتماعية..الخ). كما أن الأنساق الأخرى في المجتمع، تعتمد بشكل كبير على ما يتعلمه الفرد داخل أسرته. ولأن حالات العنف الأسري كثيرة ومتنوعة و تحدث باستمرار، بين أفراد أسر تنتمي إلى مختلف فئات المجتمع، و بين أفراد الأسرة الواحدة.

فقد حظي موضوع العنف الأسري، باهتمام كبير من الباحثين والمشتغلين في حقل العلوم الاجتماعية، إذ طور البعض منهم عددا من المؤشرات لقياسه، تضم " الضرب بأنواعه بما فيه البسيط، و التهديد بالضرب، والحذف بشيء حاد و التهديد باستخدام الأدوات المختلفة، بما في ذلك السكاكين و الأسلحة، و الاستخدام الفعلي لهذه الأدوات، و الطرد وحبس الحرية، و الحرمان من الحاجات الضرورية، و الإرغام على القيام بفعل ضد الرغبة الخاصة، والشتم و التوبيخ"(28).

واجتهد العديد من الباحثين والعلماء، في تحديد عوامل تكونه و ظهوره في الأسرة و في المجتمع، كل حسب تخصصه العلمي، من أجل صياغة مفهوم واضح و دقيق حول العنف الأسري، غير أننا نجد من المهم عرض النظريات الاجتماعية والنفسية التي قاربت المفهوم، مع استبعاد النظريات البيولوجية و الأنثروبولوجية، التي ربطت المفهوم بعوامل وراثية و غريزية، وأضعفت دور العوامل النفسية و الاجتماعية، في تكوين سلوك العنف داخل الأسرة .

لأننا نرى أن مفهوم العنف الأسري، لا يمكن تحديده خارج إطار الروابط و العلاقات الأسرية، لأنه -في تقديرنا- يتمظهر من خلالها، مما جعلنا نكتف بعرض المقاربات السوسيولوجية والسيكولوجية والسيكوسوسيولوجية، التي نراها الأقرب و الأقدر على تحديد مفهوم العنف الأسري.

2- المقاربات المعرفية حول مفهوم العنف الأسري :

1-2 - المقاربة السيكلوجية:

يزخر التراث النظري السيكلوجي المنتج حول العنف، باتجاهات و مواقف نظرية متعددة، لكل منها تصوره وتفسيره الخاص، إلا أنها تتفق جميعها حول فكرة جوهرية، مفادها أن العنف في معظم الحالات يرجع إلى العوامل النفسية، و عليه سوف نتطرق فيما يلي إلى إبراز أهم النظريات النفسية التي ساهمت أبحاثها ودراساتها في تفسير سلوك العنف، و التي يمكن اعتمادها في فهم بعض جوانب سلوك العنف الممارس بين الأفراد داخل الأسرة.

1-2-1 نظرية التحليل النفسي:

يمثل سيغموند فرويد S.Freud مؤسس مدرسة التحليل النفسي، و يكون العدوان احد أهم جوانب نظريته العامة، في تفسير السلوك الإنساني، ولأنه تأثر كثيرا بالنظريات التي كانت تسيطر على التفكير العلمي في عصره، فإن الداروينية بارزة في أعماله، إذ غلب فرويد العوامل البيولوجية الوراثية في شكل سيطرة الغرائز، والدوافع، والحاجات. و هو يرى أن البناء النفسي لشخصية الفرد يتكون من ثلاثة أقسام هي:

* قسم الذات (الهو) :

يجسد الدوافع الفطرية و الاستعدادات الموروثة و النزعات الغريزية، الكامنة في اللاشعور، و التي لها قوة وتأثير كبيرين على الفرد، تستلزم الإرضاء و الإشباع دون قيد أو شرط.

* قسم الأنا (الذات العاقلة) :

يمثل الجانب الشعوري الإرادي الواقعي، الذي يتكون نتيجة تفاعل الفرد مع عناصر العالم الخارجي، ويمثل هذا القسم مركز الإدراك، و هو يسعى إلى إيجاد أرضية وفاق بين مطالب الهو من جهة، و متطلبات الواقع الخارجي من جهة ثانية، ومنه يكون الأنا أداة التكيف مع البيئة، و أداة التطبيع الاجتماعي للسلوك.

* قسم الأنا الأعلى :

يشمل القيم، المعايير، المعتقدات و المبادئ الأخلاقية، التي تتكون لدى الفرد في المراحل الأولى من عمره، فهو بذلك له سلطة داخلية على الفرد، تتكون لديه لتقوم مقام سلطة الوالدين في غيابهما، و هي سلطة تقوم بالرقابة النفسية على نشاط كل من الجانبين الآخرين للشخصية⁽²⁹⁾. إذ يرى فرويد أن تكامل الشخصية واتزانها، يتوقف على تنظيم قوة الصراع الناشئ بين القوى الثلاث، فالشخصية السوية لديه، هي التي ينجح فيها الأنا، في إرضاء الدوافع و الميول الفطرية (الهو)، و في الوقت نفسه عدم الخروج عن المبادئ و القيم الأخلاقية التي نشأ عليها الفرد، و الذي قد يؤدي الخروج عليها، إلى سخط الأنا الأعلى.

أما إذا فشل الأنا في مهمته التوفيقية هذه "اختل توازن الشخصية، و كانت النتيجة اضطرابا عصبيا، أو مرضا ذهنيا، أو سلوكا عدوانيا عنيفا، مضادا للقواعد الاجتماعية"⁽³⁰⁾. و من ثم، يركز فرويد على مرحلة الطفولة الأولى، وما يجري خلالها من علاقات و تفاعلات بين الطفل و الأبوين، بوصف هذه الفترة الأرضية الأساسية، التي تبنى عليها سوية الشخصية أو اضطرابها.

فالحياة حسب فرويد، هي كفاح بين غريزة الحياة و دوافعها الحب و الجنس، و التي تعمل من أجل الحفاظ على الفرد، و بين غريزة الموت و دوافعها العدوان و التدمير و الإنتحار، و هي غريزة تحارب دائما من أجل فناء الإنسان، و تقوم بتوجيه العدوان المباشر خارجيا، نحو الآخرين، و إذا لم ينفذ العدوان نحو موضوع خارجي، فانه سوف يتردد إلى الفرد نفسه، ويصبح تدميرا للذات، فالعدوان إذن يمثل سلوكا غريزيا، هدفه تصريف الطاقة العدائية، التي تنشأ داخل الفرد الموت، و تلج في طلب الإشباع"⁽³¹⁾.

كما فسر فرويد سلوك العنف، من خلال النزعة السادية، حيث ربط بين العنف و النزعة الجنسية، ورأى أن الفرد يكون عنيفا عندما يبحث عن اللذة، لكن في حالة فشله، يشعر بالألم و يصاب بالإحباط، فتتكون لديه، قوة بدنية تظهر نفسها، عندما يبلغ الإحباط و الألم عند الفرد درجة لا تحتمل، فيوجهها ضد الذات (المازوشية) كالإنتحار، أو ضد الآخر (السادية) كالإعتداء.

2-1-2- نظرية المشكلات الانفعالية لـ: سيرل بيرت C. Burt و آخرون :

تنطلق هذه النظرية من فرضية أساسها، أن المشكلات الانفعالية للفرد، هي العامل الرئيسي في تكوين العنف، وتعتبر الدراسة التي قام بها سيرل بيرت، من بين الدراسات العلمية الهامة، التي تناولت موضوع المشكلات العاطفية للأحداث المنحرفين، و اضطراب شخصياتهم، كتمهيد لتكوين السلوك الانحرافي لديهم.

2-1-3- نظرية الإحباط:

تستند هذه النظرية إلى افتراض مفاده أن الإحباط يؤدي إلى العنف، "فهو تؤكد أن الإحباط إن لم يؤدي في معظم الظروف إلى العنف، فعلى الأقل كل عنف يسبقه موقف إحباطي"⁽³²⁾.

بحيث يرى كل من **وليم ماكدوجال** W. Mc Dougall و **جون دولارد** J. Dollard، أن الإحباط يؤدي إلى العدوان والعنف، وقد أصرا على أن كل أشكال العنف، ناتجة عن الإحباط، الذي لا يمكن الدفاع عنه أو مقاومته، مادامت كل القوى بما فيها الفيزيولوجية، في حالة ركود.

وقد أكدت الأبحاث التي تناولت دراسة مراحل النمو النفسي و العاطفي للطفل، أن السلوك العدواني والتحطيم، يعقب شعور الطفل، بأنه لا يستطيع نيل ما يريده، و بالتالي فإن الإحباط يظهر عند الطفل، حينما يحدث ما يعطل أو يؤخر إشباع رغبته، و في هذه الحالة يبدأ تفاعله العدواني و العنيف، حيال كل ما يراه أمامه، لدرجة أنه إذا وجد لعبته المفضلة أمامه، فإنه لا يتردد في تحطيمها، و يقوم عادة الوالدان بتهديب السلوك العدواني والعنيف في الطفل، فيعلمانه كيفية التحكم في إشباع رغبته، و ضبط انفعالاته، لكن في حالة إهمال الوالدين له، فلا ريب من أنه سيتنامى و يشتد لدى الطفل، ويصبح متضمنا في شخصيته.

إذن، فالسلوك العنيف هو "نتيجة حتمية للخيبة و الفشل، التي يشعر بها الفرد من جراء عدم تحقيق أساسيات الانتماء الاجتماعي، لأسرته أو مجتمعه، و إخفاقه في تحقيق رغبته المكبوتة، و تكوين علاقات اجتماعية مع الآخرين، فتخبب آماله، ويشعر بالإحباط، و يصبح فردا منبوذاً" (33). واقترح **بوركويتز** Berkowitz أن درجة الإحباط تتأثر بما إذا كان الفعل الذي تسبب في الإحباط متوقعا أم لا، فكلما كان الفاعل يتوقع الفعل كلما كانت درجة الإحباط أضعف.

كما أكد **آرثر جيمس** A. James و زملائه، أن العدوان "ينشأ بسبب الإحباط، و عمليات الإذلال التي تمارس ضد الفرد، وبالتالي يصبح السلوك العنيف، الوسيلة الوحيدة التي يلجأ إليها الفرد، للتخفيف من حدة التوتر النفسي، فهو بصيغة أخرى يمثل عملية رد الاعتبار" (34).

من الملاحظ أن جل النظريات النفسية، بمختلف اتجاهاتها، قد أظهرت أهمية العوامل النفسية في تكوين سلوك العنف و العدوان لدى الفرد، و أغفلت أن الفرد لا يعيش بمعزل عن بيئته الاجتماعية، و أنه بطبيعته اجتماعي، يتفاعل مع أفراد آخرين فيها، و يدخل في علاقات دائمة و مستمرة معهم، مما يعني أن للعوامل الاجتماعية دور هام في تكوين سلوك العنف لدى الفرد، و هو ما سوف نتبينه من خلال عرض المقاربة السوسيولوجية حوله.

2-2- المقاربة السوسيولوجية :

اهتم علماء الاجتماع بدراسة العنف، باعتباره ظاهرة اجتماعية قديمة، ترتبط بالظروف الاجتماعية، وطبيعة المجتمع ونمط ثقافته، و درجة تحضره، و نوع الأسرة و أساليب التنشئة الاجتماعية المتبعة فيها. مما يخرنا حول ثراء الأطر التفسيرية المنتجة في الحقل السوسيولوجي، و التي سوف نستعرض أهمها:

2-2-1- نظرية اللامعيارية لإميل دوركايم E. Durkheim:

يرى **دوركايم** أن غياب التماسك الاجتماعي بين الأفراد، الذين تجمعهم أهداف اجتماعية مشتركة، قد يؤدي في الغالب إلى اضطراب وظائف المجتمع، و إلى حالات من التفكك أو الانحلال الاجتماعي، مما يؤدي بدوره إلى حالة ضياع أو ضعف المقاييس و المعايير الاجتماعية، التي تساعد على التنبؤ بالسلوك المتوازن المطلوب من الأفراد، وبالتالي إلى حالة انهيار المعايير، المسؤولة عن تنظيم علاقات الأفراد، بعضهم ببعض، داخل النظام الاجتماعي الواحد. وهي الحالة التي اصطلح **دوركايم** على تسميتها " الأنومي"، والتي تغيب فيها المعايير الاجتماعية، وتتعدم فيها القواعد المسؤولة عن توجيه سلوك الأفراد، وتنظيم نشاطاتهم في إطار النظام الاجتماعي

القائم، وغالبا ما تؤدي هذه الحالة إلى اضطراب الرؤيا لدى الأفراد، واختلال إدراكهم السليم للتمييز، بين ما هو ممكن وغير ممكن، و بين ما هو معروف و مجهول، و عليه فان انعدام الضوابط المحددة للسلوك الإنساني، يؤدي إلى انعدام الضوابط المحددة لطموحات الأفراد، ووسائل تحقيقها .

وتبعا لذلك يمكن أن نتوقع من الفرد إتباع سلوك انحرافي أو إجرامي عنيف، و تبني وسائل غير شرعية، من أجل إشباع حاجاته، وتحقيق طموحاته التي لا تعرف الثبات و الإكتفاء. و نشير أن دوركايم قد فسر الجريمة، استنادا إلى فرضياته التي يمكن أن نلخصها على النحو التالي:

- الجريمة ظاهرة لا يمكن إغفال تصاعد معدلاتها بشكل هائل .
- الجريمة من هذا المنطلق، ظاهرة حتمية في وجدها، لأنها مألوفة .
- و من خلال حتمية الجريمة في جميع المجتمعات، تصبح في حد ذاتها جزءا من الحياة الاجتماعية، ومرتبطة به ارتباطا وظيفيا.

2-2-2- نظرية التركيب الاجتماعي و اللامعيارية لـ روبرت ميرتون R. Merton:

يرى ميرتون أن للمجتمع أهدافا يركز عليها بشكل قوي، منها النجاح المادي، و بالإضافة إلى تركيزه على هذه الأهداف، فإنه بالمقابل يركز على الوسائل الشرعية التي تحقق هذه الأهداف، و حينما تمارس هذه الأخيرة ضغوطا قوية على المجتمع، فإن الوضع يصبح مهيا لظهور الأنومي، ذلك لأن فرص تحقيق النجاح من خلال استخدام الوسائل المشروعة، غير متاحة، بشكل عادل أمام جميع أفراد المجتمع، وعليه فإن الفرد قد يلجأ إلى الوسائل غير الشرعية لتحقيق هذا النجاح.

فالأفراد المنتمين إلى طبقة دنيا، عاجزين عن الحصول على وظائف مناسبة، تسمح لهم بتحقيق الهدف الأسمى وهو النجاح المادي، وعندما يتسم المجتمع بعدم المساواة بين الأهداف والوسائل، فإن المجتمع حينئذ يصبح عرضة لحالة الأنومي.

وعليه، يؤكد ميرتون بأن التناقض بين الثقافة المنتشرة - وهي المساواة في إتاحة الفرص أمام جميع الأفراد - وبين الحالة الواقعة فعلا - و هي عدم المساواة في إتاحة الفرص أمام جميع الأفراد - يؤدي إلى ظهور السلوك الإنحرافي⁽³⁵⁾.

2-2-3- نظرية الاختلاط التفاضلي لـ سذرلاند Sutherland :

يرى سذرلاند أن أساس السلوك الإنحرافي هو التعلم، فالفرد يتعلم سلوك العنف والعدوان من خلال اختلاطه واحتكاكه بالأفراد المنحرفين، عن طريق مجالستهم و الحديث معهم، ولذلك فان الفرد الذي لم يتعلم السلوك الإنحرافي، لا يستطيع أن يأتيه، على غرار من لم يتعلم حرفة ما، فإنه لا يستطيع امتنانها، كما يمكن أن يكتسب العنف كذلك بطريقة غير مباشرة من خلال مشاهدة التلفزيون مثلا، وبناءا على ذلك فإن سذرلاند قد فسر السلوك الإجرامي بأنه "سلوك يتم اكتسابه عن طريق التفاعل مع أفراد آخرين، خلال عملية اتصال شفهي أو عن طريق الرموز"⁽³⁶⁾.

إن تفسير سذرلاند للسلوك الإجرامي يستند إلى وجود حالة من عدم التنظيم الاجتماعي، تهيأ الظروف والمواقف الملائمة لانتقال بعض الأنماط السلوكية الإجرامية، من أفراد مجرمين إلى أفراد غير مجرمين، وأن

عملية التعلم هذه لا تتم بين أطراف متباينة، وبصفة عشوائية، بل تتم بين أطراف على درجة متينة من الصلة الشخصية أو على درجة واضحة من الصداقة أو الزمالة، فتنشأ بين هؤلاء الأفراد علاقات أولية مباشرة.

و بناءا على ما تقدم، يمكن تلخيص أبرز فرضيات نظرية الإختلاط التفاضلي في النقاط التالية :

- يعد السلوك الإنحرافي، سلوكا متعلما و مكتسبا، فهو لا يورث، ذلك أن الفرد الذي لم يدرب على ممارسة الإنحراف، لا يمكنه إبداع أو ابتكار سلوك انحرافي.

- يتم تعلم السلوك الإنحرافي من خلال عملية الإتصال أو التفاعل مع أفراد آخرين، يمارسون ذلك النمط من السلوك، وبواسطة الإتصال يتم اكتساب المهارات و الحركات والإشارات المتعلقة بالسلوك الإنحرافي.

- يتم تعلم السلوك الإنحرافي من خلال التفاعل مع أفراد تجمع بينهم علاقات وثيقة، مما يعني أن وسائل الإتصال غير المباشرة، تلعب دورا ثانويا في نشر الإنحراف، و اكتساب مهارات السلوك الإنحرافي.

2-2-4- نظرية الانتقال الثقافي لـ كليفورد شو C. Shaw و هنري ماكلي Mc. Lee:

ترتكز هذه النظرية على العامل الإيكولوجي في دراسة الخصائص الثقافية لبعض المناطق الجغرافية، التي تتميز بارتفاع معدلات الممارسة العنيفة فيها، وفي دراسة قام بها الباحثان شو و ماكلي، توصلا فيها إلى أن الإنحراف كإحدى صور العنف، يحافظ على معدلات ثابتة في بعض مناطق شيكاغو، و لفترات متتالية، رغم ما شهدته من تحولات ديمغرافية كبيرة، فاستنتجا أن العنف و الجريمة ينتقلان ثقافيا من جماعة إلى أخرى، ومن جيل إلى آخر مع الإحتفاظ بمستويات ثابتة، ويتم هذا الإنتقال الثقافي، من خلال عمليات ثقافية، تتمثل في الإتصال الشخصي المباشر، بين الأفراد وبين الجماعات على حد سواء.

والواقع أن هذه النظرية تركز على مناطق الإنحراف، وما تتميز به من اقتصاديات ضعيفة، و أوضاع مزرية، وبالتالي فإن أفراد هذه المناطق هم من الطبقة الفقيرة، ولما كانت طموحات أفراد هذه المناطق لا تختلف عنها لدى أفراد المناطق الراقية، التي تتميز بأوضاع مادية جيدة، وفي ظل غياب الوسائل التي تحقق طموحاتهم، فإنهم يلجئون إلى الطرق غير الشرعية في سبيل تحقيق هذا الطموح⁽³⁷⁾.

2-2-5- نظرية التقليد و المحاكاة:

تؤكد هذه النظرية أن العنف سلوك مكتسب، إذ يتعلمه الفرد عن طريق التقليد و المحاكاة، فالأطفال يقلدون سلوك الآخرين، و قد يقلدون قياسا على ذلك السلوك العنيف أو العدوان، من خلال ما يشاهدونه من ممارسات العنف إما بشكل مباشر مثل الخلافات العائلية، و ما يترتب عليها من مشاهد عنيفة، بين الأبوين وأفراد الأسرة، وإما بشكل غير مباشر مثل مشاهدة أفلام العنف على شاشة التلفزيون. وقد ثبت أن مشاهدة الطفل لموقف عنيف في التلفزيون لبضع دقائق، يمكن أن يؤثر على سلوكه العدواني لعدة شهور.

ويربط أصحاب هذه النظرية بين زيادة معدلات العنف في معظم مجتمعات العالم، في السنوات الثلاثة الماضية، ومشاهدة الأطفال لبرامج عنيفة، حيث دلت الأبحاث على أن مشاهدة الأطفال لها تكون عادة مع بداية الليل، و أن حوالي 80% من البرامج المعروضة في هذه الفترة، تتضمن على الأقل مشهدا عنيفا، و في المتوسط هناك نحو 5,7 حدثا عنيفا في كل ساعة من ساعات البث في هذا الوقت.

وهناك بعض الإحصائيات أقيمت في أمريكا على مراهقين من أعمار 16 سنة، تدل على أنهم يقضون وقتاً طويلاً وهم يشاهدون التلفزيون، يفوق الوقت الذي يقضونه في المدرسة، و ببلوغهم هذا السن، يكون إجمالي حالات القتل التي شاهدها 13000 قتيلاً في التلفزيون⁽³⁸⁾.

وعليه فإن سلوك العنف حسب هذه النظرية، يتم من خلال عملية اجتماعية هامة، تتمثل في عملية التقليد، التي تتم عن طريق الإتصال المباشر أو غير مباشر بين طرفين من الأفراد، أحدهما منشئ والآخر مقلد، و يتم ذلك في بيئة اجتماعية تتسم بسوء تنظيمها الاجتماعي، فالعنف إذن هو نتاج تأثير الأفراد العاديين بسلوك الأفراد العنيفين.

2-2-6- نظرية التعلم الاجتماعي (التنشئة الاجتماعية):

يرى أصحاب هذه النظرية أن "سلوك العنف هو سلوك مكتسب يتعلمه الفرد من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، التي تعتبر في حد ذاتها عملية تعلم، لكونها تتضمن تغييراً أو تعديلاً في السلوك نتيجة التعرض لخبرات و ممارسات معينة، عن طريق أساليب ووسائل تحقق التعلم، سواء كان ذلك بقصد أو بدون قصد"⁽³⁹⁾.

ذلك أن التعلم بالنسبة للفرد، يكون عن طريق "المحاكاة والملاحظة للأفراد المحيطين به، وأن الفروق الفردية تلعب دورها في درجة اكتساب السلوك العدواني والعنيف، إذ كلما كان الفرد الذي يمارس العنف، ذو مركز مهم في المجتمع، كلما كان تأثيره على الآخرين أكبر، و بالتالي فإن اكتسابه للسلوك العنيف يكون أكبر"⁽⁴⁰⁾.

واعتبر كل من ألبرت باندورا Albert Bandura و والترز Walters أن السلوك العنيف، ما هو إلا نمط من الأنماط السلوكية، التي يتعلمها الفرد ودعمت لديه. واعتبر باندورا أن التحليل المتكامل للسلوك العنيف، يتطلب الانتباه إلى ثلاثة قضايا هامة تتمثل في:

أ- الطريقة التي يكتسب بها السلوك.

ب- العوامل التي تساعد على قيام الفردية.

ج- الظروف المساعدة تجاه هذا السلوك⁽⁴¹⁾.

كما يرى كلا من ميلر Miler و دولارد Dollard أن الطفل قد يتعلم سلوكاً مطابقاً لسلوك فرد آخر، دون إدراكه للمثيرات في سلوك ذلك الفرد، مثل الطفل الذي تعلم أن يشتم زملائه و يتشاجر معهم لأن أباه يفعل ذلك مع أصدقائه وجيرانه، لا لأنه يفهم سبب شجار وشم الأب ، وحتى أن الطفل لا يدرك أن سلوكه مطابق لسلوك والده⁽⁴²⁾.

و يرى أصحاب نظرية التعلم أن السلوك يتدعم أو يتغير تبعاً لنمط التعزيز المستخدم أو العقاب، فالسلوك الذي يقابل بالثواب والثناء، يميل إلى أن يتكرر مرة أخرى في مواقف مماثلة للموقف الذي أثيب فيه السلوك، بينما السلوك الذي يقابل بالعقاب والذم، فإنه يميل إلى أن يتوقف .

ومن المجالات التي تبدو فيها آثار التعليم واضحة تلك القيم الثقافية التي تحيط بالشرف الشخصي وكذلك العام بهالة من القدسية، وللشرف معان ومجالات متنوعة تختلف باختلاف الثقافات، وقد يتعلق الشرف بقضايا عامة يستमित الفرد في الدفاع عنها، منها قضايا تتعلق بالدين، أو بالوطن، أو بالمبادئ، و المواقف، غير أن المهم بالنسبة لنا في هذا المقام، هو الشرف الشخصي أي الذي يتعلق بالفرد نفسه، وما يتعلق به عن قرب، كأفراد

أسرته الصغيرة، وأحيانا حتى أفراد الأسرة الكبيرة، بل يتسع نطاق دائرته ليشمل جميع أفراد القبيلة في المجتمعات ذات الروابط القبلية القوية، و يتعلم الفرد وسائل المحافظة على الشرف ووسائل الدفاع عنه.

وقد يرتكب في سبيل ذلك أي فعل، وقد يسلك أي طريق مهما بعد عن مسارات التفكير العقلاني، لذلك يتخاصم الأفراد، وبعادي بعضهم بعضا، وقد يتقاتلون من أجل شبر من أرض جرداء، ويشعر الفرد بالفخر وبالسعادة وهو يرتكب جريمة قتل نكراء ليمحوا عارا، فقد تعلموا أن هذا النوع من العار لا يمحوه إلا الدم، بغض النظر عما في القانون من مواد تحدد عقوبات قاسية لمثل هذا الفعل.

كما تتضمن الثقافة علامات وإشارات و مضامين خاصة بقضية الشرف هذه، وإذا ما تعرض الفرد لواحدة منها فإن الدم يغلي في عروقه ويثور ويفقد صوابه، ويقوم بفعل يراه مناسبا للدفاع عن شرفه الذي ديس عليه، ومحو الإهانة التي تعرض لها، وبالطبع فقد تتغير بمرور الوقت بعض هذه العلامات الثقافية من إشارات، وأسماء حيوانات و كلمات و عبارات وأفعال محددة.

هذا، و يؤكد أصحاب هذه النظرية، أن الأطفال الذين يشاهدون العنف، يحتمل أن يقوموا به بنسبة أكبر من الأطفال الذين لم يسبق لهم أن شاهدوه وهو يمارس من قبل أفراد راشدين، و لذلك نجد أن الباحثين وكل أتباع هذه النظرية بشكل عام، يؤكدون على أهمية التنشئة الاجتماعية في إكساب الأطفال السلوك السوي أو العنيف من خلال التركيز على عملية التعزيز والتحفيز للسلوكات السوية و العقاب للسلوكات العنيفة والضارة.

ويؤكدون كذلك أن الضغوط الناتجة عن الخلافات والتوترات داخل الأسرة، و أوضاعها الاقتصادية المتردية، من أهم العوامل التي تؤثر في تنشئة الأطفال، وتكوين سلوك العنف لديهم، و في هذا السياق يمكن الإشارة إلى ما توصلت إليه عالمة الأنثروبولوجية **مرغريت ميد** M. Mead في دراستها المقارنة لقبيلتي الأرابش المسالمين والموندغمر العنيفين، حيث أوضحت **ميد** أن الطفل في قبيلة الموندغمر يعامل بقسوة أثناء الرضاعة مما ينمي لديه السلوك العنيف، و على العكس من ذلك فإن الطفل في قبيلة الأرابش يمنح كل الحنان والرعاية، مما يعمل على تذليل ظهور السلوك العنيف لديه، مقارنة بالموندغمر، وعليه فإن **ميد** تؤكد أن سلوك العنف يرتبط بعملية التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها الفرد في أسرته ومجتمعه.

فالتفكك الأسري الناتج عن غياب أحد الوالدين، أو انفصالهما، من شأنه أن يؤثر في تنشئة الأطفال، ويؤكد **هوير** Heuyer من خلال الأبحاث التي قام بها في مدينة باريس عام 1942 أن 80% من الأحداث المنحرفين ينتمون إلى أسر مفككة، كما تؤكد أبحاث **شو** Show التي طبقت على 1675 حدث أن 42,5% منهم نشئوا في وسط أسري متصدع⁽⁴³⁾.

وعلى كل فإن النظريات السوسيولوجية التي قاربت ظاهرة العنف، و رغم تركيزها الشديد على العامل الاجتماعي في تكوين سلوك العنف، من خلال مختلف أطرها التفسيرية، نجدها تغفل إلى حد ما دور العامل النفسي في ظهور العنف لدى الأفراد والجماعات الاجتماعية في المجتمع، وهو ما يحملنا إلى استعراض المقاربة السيكوسوسيولوجية التي نعتبرها مدخلا نظريا متكاملا في فهم سلوك العنف الممارس في المجتمع بوجه عام، وسلوك العنف الممارس داخل الأسرة بوجه خاص.

2-3- المقاربة السيكوسوسيولوجية :

2-3-1- النظرية المتعددة العوامل لـ بيرت Bert و آخرون :

أظهرت البحوث العلمية المتعددة، في مجال العلوم الاجتماعية، المهمة بدراسة الجريمة والانحراف والعنف، أنه لا يمكن الاعتماد على عامل واحد في تفسير تلك الظواهر السلوكية، لكونها ظواهر مركبة تستند في تفسيرها إلى عوامل متعددة، يمكن تقييدها إلى جانب فردي وآخر اجتماعي، إذ يشتمل الجانب الفردي على العوامل الجسمية والعقلية والنفسية، أما الجانب الاجتماعي فإنه يتضمن العوامل البيئية مادية كانت أو اجتماعية، ويمثل هذا أساس المنهج التكاملي الذي لا يبحث في أسباب الجريمة والعنف، ولكن في عوامله. ومنه فإن هذه النظرية تأخذ بمنطق تعدد العوامل وتكاملها في الوقت نفسه، ومن أشهر مؤيدي هذا الإتجاه سيريل بيرت.

والواقع أن أصحاب هذا الإتجاه، قد بنوا نظرتهم من خلال نظريات ودراسات، قام بها مجموعة من الباحثين المهتمين بميدان الإنحراف والجريمة، وقد اتفقت نتائج دراسة بيرت، مع نتائج أبحاث أخرى في تأكيد مبدأ تعدد العوامل، المؤدية إلى السلوكيات الشاذة أو العنف.

ويرجع عالم الإجرام الأمريكي، وصاحب نظرية الإحتواء "W.Reckless ركلس" السلوك الإجرامي، إلى فشل الإحتواء الداخلي (النفسية)، والإحتواء الخارجي (الإجتماعي)، والمقصود بالإحتواء الداخلي هنا، قدرة الفرد على الإمساك عن تحقيق رغباته، بطرق منافية للمعايير الاجتماعية، أما الإحتواء الخارجي، فهو قدرة الجماعة أوالنظم الاجتماعية، على أن تجعل لمعاييرها الاجتماعية أثرا فعالا على الأفراد، بحيث تظهر قوتهم في درجة مقاومتهم للضغوط الاجتماعية، مثل سوء الحالة الإقتصادية، أو التفكك الأسري أو الجماعات المنحرفة، بينما تعكس قوة الإحتواء الداخلي، في مدى مقاومته لعوامل الدفع المتمثلة في اضطرابات داخلية، واتجاهات عدوانية وشعور بالنقص وعدم الصلاحية⁽⁴⁴⁾.

وعليه فإن هذه النظرية التي يمكن تسميتها بالنظرية النفسية الاجتماعية، تعتبر الجريمة والعنف، سلوك ناشئ عن فشل الضوابط الشخصية الداخلية والاجتماعية الخارجية، في إيجاد اتساق بين السلوك والمعايير الاجتماعية، وهو ما يسمى بنظرية الضوابط الاجتماعية الداخلية و الخارجية، بحيث تمثل آراء ركلس هذه النظرية، فهو يرى أن فهم أنواع السلوك الإجرامي عامة والعنف خاصة، يتطلب من الباحث أن يفسر العلاقة القائمة بين الفرد وبين الموقف الاجتماعي المباشر، الذي يتواجد فيه، وذلك في إطار النظام العام للمجتمع، بمختلف مؤسساته.

وفي دراسة أخرى للباحثين هيلي Haley و برونر Bruner، اكتشفا من خلال مقارنتهما لـ 105 من الأطفال المنحرفين، بعدد مماثل من الأطفال الأسوياء، أن 91 % من الأحداث المنحرفين، يعانون من اضطرابات شديدة في شخصياتهم، فهم يشعرون بقلق شديد و تعاسة كبيرة، بسبب ظروف حياتهم، بينما لا تعاني من هذه الأعراض المرضية النفسية سوى 13% من الأحداث غير المنحرفين في المجموعة الضابطة.

2-3-2- نظرية تعدد العوامل لـ: شيلدون جلوك G. Sheldon و أليانور Aleanor :

تقوم هذه النظرية على فكرة جوهرية، مفادها أن العنف، يرجع إلى سلسلة طويلة متعاقبة من الظروف والعوامل والأسباب، التي تتشكل في مجموعات على درجة كبيرة من التكامل، تؤدي في مجموعها إلى النتيجة النهائية المتمثلة في العنف والعدوان.

وقد أجري كل من العالمين شيلدون و ألينور، مقارنة بين مجموعة من الأحداث المنحرفين، ومجموعة أخرى من الأحداث غير المنحرفين، و توصلا إلى أن كلا من المتغيرات النفسية والاجتماعية، تعمل في ديناميكية داخلية متكاملة، يصعب معها الفصل بين تأثير كل منها، بصورة مستقلة، وعليه فإن الانحراف بوصفه أحد سمات العنف والعدوان، يكون نتيجة نهائية، لإسهام مجموعة كبيرة من العوامل العقلية، الوجدانية، الجنسانية والاجتماعية. إن مثل هذا التفسير المتعدد العوامل، يؤكد وجود، دوافع فطرية غير مروضة كامنة داخل اللاشعور، تنتظر عوامل وظروفا مواتية للظهور، من أجل إشباع بعض الرغبات المكبوتة، التي باتت تنتظر فرصة للتعبير عنها، وما العنف إذن إلا تعبير سلوكي، عن بعض هذه الدوافع المكبوتة، و التي أدت عوامل بيئية وأخرى حضارية ملائمة، إلى بروزها بشكل واضح في المجتمع. كما يرى أصحاب هذه النظرية، أن ثمة "بعض الاتجاهات الاجتماعية، اختفت في أعماق شخصية الطفل خلال مرحلة طفولته المبكرة، وذلك نتيجة تطور خاطئ أو نتيجة تنشئة اجتماعية سيئة، ولذلك فإنه من غير الممكن رد السلوك العنيف إلى عامل معين بالذات أو إلى سبب واحد، بل إلى مجموعة متكاملة من الظروف والعوامل والمواقف والمتغيرات، التي تنتظم في سياق طويل"⁽⁴⁵⁾.

3- تحليل ومناقشة:

بادئ ذي بدء، نجد من المهم أن نذكر بأن العنف الأسري، باعتباره أحد أشكال العنف الممارس في المجتمع، له خصوصيته، من حيث كونه جزءا من كل يمارس داخل بيئة اجتماعية معلومة تتمثل في الأسرة، ومن حيث العلاقات الأسرية المتبادلة بين الأفراد، لذلك تم إخضاع التراث النظري المنتج حول العنف داخل المجتمع، إلى عملية انتقائية، وأدرجت النظريات العلمية التي تبدو في تقديرنا الأقرب في فهم العنف الأسري، والأقدر على تفسيره، والتي حددت في المقاربات السيكلوجية، السوسيولوجية و السيكلوسوسيولوجية، وإن كانت هذه الأخيرة تمثل في نظرنا مدخلا نظريا متكاملًا في فهم سلوك العنف الممارس داخل البيئة الأسرية، فإن لكل من النظريات الاجتماعية والنفسية الأخرى دورا هاما في تفسيره، لكن ما يؤخذ على كليهما يتمثل في التركيز على عامل واحد في تفسير العنف .

ومن جملة الإنتقادات التي وجهت إلى المقاربات السيكلوجية بوجه عام، أنها قد أرجعت سلوك العنف إلى عوامل نفسية وانفعالية فحسب، و أغفلت أن الفرد يعيش في بيئة اجتماعية، ويتفاعل مع غيره من الأفراد فيها، ويدخل معهم في علاقات دائمة ومستمرة لاسيما مع أفراد أسرته. فأصحاب النظريات النفسية و بخاصة مدرسة التحليل النفسي، يكتفون بأن العنف أو ما يصطلحون على تسميته بالعدوان، هو خاصية تمتد جذورها إلى الطبيعة البشرية، فهو إذن غريزة إنسانية ثابتة داخل كل فرد، وما عوامل البيئة الاجتماعية التي يتواجد فيها إلا مثيرات لها، وبهذا فإنهم يغفلون أهمية العوامل الاجتماعية في تكوين العنف وظهوره لدى الفرد، وإن كانت الحالات النفسية في معظمها تتكون نتيجة عوامل اجتماعية وثقافية، فالإحباط حالة نفسية ينظر إليه كأحد العوامل المفضية إلى العنف، غير أنه قد يتكون لدى الفرد نتيجة عوامل اجتماعية داخل بيئته الأسرية أو الاجتماعية، كأن يكون الإحباط نتيجة للخيانة الزوجية غير المتوقعة بين الزوجين.

أما فيما يتعلق بالإنتقادات التي وجهت للنظريات السوسيولوجية المنتجة حول العنف، فإنها تدور حول غلوها في ارجاع العنف إلى عوامل اجتماعية وثقافية، وكأن الفرد هو تابع للجماعة فحسب، يأخذ ولا يعط، يتأثر ولا يؤثر، فالعنف حسب أصحاب هذه النظريات لاسيما نظرية التعلم الاجتماعي، هو سلوك اجتماعي مكتسب، وبناء

على ذلك فإن الفرد العنيف إذن هو ضحية بيئته الاجتماعية، و بالتالي فإن دور العوامل النفسية والإنفعالية يبدو مغيبا تماما.

الأمر الذي جعلنا نضيف إلى التراث النظري السيكولوجي والسوسيولوجي، في تفسير العنف، النظريات السيكلوسوسيولوجية، التي تؤكد ارتباط العنف بالعوامل النفسية والإنفعالية، باعتباره غريزة أوخاصية إنسانية كامنة داخل كل فرد، وفي الوقت نفسه لا تلغي دور البيئة الاجتماعية والثقافية التي يتكون فيها، والتي تلعب دورا هاما في تكوين سلوك العنف وتنميته، أو إضعافه والتقليل منه، وهو ما يتوقف على أساليب التنشئة الاجتماعية التي تتبعها الأسر و الجماعات الأولية، والأنماط الثقافية التي تسود المجتمعات الإنسانية بوجه عام، فيمكن القول أن النظريات السيكلوسوسيولوجية قد استفادت من إسهامات الحقول السوسيولوجية والسيكولوجية وتجاوزت جوانب الضعف والقصور فيهما. وعلى ضوء ما تقدم، يمكن تلخيص العلاقات بين أهم المتغيرات، التي يمكن أن تقدم تفسيراً للعنف الأسري على النحو التالي :

العنف الأسري " عبارة عن فعل من أفعال العنف، يقوم به أحد أفراد الأسرة ضد فرد آخر، تأخذ هذه الأفعال أشكالا متعددة، وتتنوع من حيث الشدة والإستقرار وكمية ونوعية الأضرار التي تسببها. والعنف الأسري يحدث نتيجة حالة أو حالات إحباط تثير درجة عالية من التوتر، تتطور إلى عدوان يعبر عنه في شكل فعل من أفعال العنف، ومصادر الإحباط في المجتمعات المعاصرة كثيرة ومتنوعة، يمكن تصنيفها إلى الفئات العامة التالية:

1- عوامل شخصية وتتضمن :

1 1 صفات عامة : الجنس، السن، المستوى التعليمي، المكانة الاجتماعية.

1 2 التوازن النفسي الإجتماعي.

2-عوامل مجتمعية تتعلق بالمحيط و يمكن أن تقسم إلى:

1-2 المحيط المباشر - القريب الأسرة والعمل.

2-2 المحيط المباشر - البعيد الحي و المدينة.

3-2 المحيط غير المباشر - القريب المجتمع والدولة.

4-2 المحيط غير المباشر - البعيد الوضع الدولي⁽⁴⁶⁾.

خاتمة:

في الأخير، يمكن القول أن العنف الأسري، ليس نتاج عامل معين في البيئة الاجتماعية، وإنما هو نتاج لتداخل وتفاعل بين العوامل النفسية والإنفعالية، والعوامل الاجتماعية والثقافية، مما يجعل منه مفهوما شائكا وشديد التعقيد، يصعب تحديده، وكيف أنه يختلف من مجتمع إلى آخر، و يتنامى والمتغيرات الاقتصادية والثقافية في المجتمع، الأمر الذي يستدعي منا كباحثين، المزيد من الإهتمام بالموضوع، لاسيما أنه ينتج داخل الأسرة التي تعد أهم المؤسسات الاجتماعية، التي يعتمد عليها في تنشئة الأفراد الجدد، وإكسابهم أنماط السلوك القويم، الذي يحقق تآزر الجماعة وتماسكها، و يحقق نمو مختلف الأنساق في المجتمع، التي تعتمد بالدرجة الأولى، على ما يتعلمه الأفراد من معايير وقيم وسلوك، في بيئتهم الأسرية، وعليه فإن تفشي العنف في الأسرة يمثل تهديدا حقيقيا لتماسك البناء الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية التي تقتضيها الحياة الاجتماعية، و أن المسارعة إلى الإهتمام

بدراسة الاختلالات البنوية والوظائفية للأسرة، من شأنه أن يقلل من حدة الظاهرة وانتشارها، طالما أن العنف الأسري يمثل نتاجا للظروف والعوامل النفسية والاجتماعية والثقافية التي ينشأ فيها الأفراد داخل الأسر.

الهوامش:

- 1- ابن منظور، لسان العرب المحيط (معجم لغوي علمي)، دار لسان العرب - بيروت (د.ت)، ص 903.
- 2-Le petit Larousse (grand format), 21 rue du Montparnasse – paris, 2004, p 1068.
- 3- جمال معتوق، وجوه من العنف ضد النساء خارج بيوتهن - دراسة ميدانية لممارسة العنف ضد النساء في الشارع بمدينة البليدة- (رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في فرع علم الاجتماع الثقافي، معهد علم الاجتماع - جامعة الجزائر (1993/1992) ص نقلا عن:
- Robert(p) Dictionnaire Le Robert a alphabétique et analogique de la langue française : Société du nouveau livre (S.N.L) paris, 1978 , p 2097.
- 4- Oxford advanced learner's dictionary of current English, p 1445.
- 5- علي سموك، إشكالية العنف في المجتمع الجزائري من اجل مقارنة سوسولوجية، ديوان المطبوعات الجامعية- قسنطينة، 2006 ص35، نقلا عن :
- C.L.Ontonus, The Oxford Dictionary of etymology, ED, oxford clarencton press, 1966.
- 6- مصطفى النير، العنف العائلي، الرياض، ط 1، 1997، ص 14.
- 7- فيليب برنو وآخرون، المجتمع والعنف، ترجمة: الياس زحلاوي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق 1975، ص 154.
- 8- مصطفى النير، مرجع سابق، ص 15 .
- 9- محمد عوض الترتوري، أغادير عرفات جويحان، علم الإرهاب، دار حامد - الأردن، 2005، ص ص 47-84 .
- 10- مصطفى النير، مرجع سابق، ص 14 .
- 11- مصطفى النير، مرجع سابق، ص 12 .
- 12- فريدريك معتوق، معجم العلوم الاجتماعية، أكاديميا - بيروت، 1998، ص 30 .
- 13- فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار سعاد الصباح - الكويت، 1993، ص 480 .
- 14- احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (انجليزي-فرنسي-عربي)، مكتبة لبنان - بيروت، (د.ت)، ص 441.
- 15- فاروق مداس، قاموس مصطلحات علم الاجتماع، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع- الجزائر، (د.ت)، ص 17.
- (*)- ورد تعريف العنف Violence بأنه إكراه، في المراجع التالية :
- فريدريك معتوق، معجم العلوم الاجتماعية (انجليزي-فرنسي-عربي)، أكاديميا- بيروت، 2001، ص 342.
- احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية (انجليزي-فرنسي-عربي)، مكتبة لبنان - بيروت، (د.ت)، ص 441.
- 16- فيليب برنو وآخرون، مرجع سابق، ص 84 .
- 17- المرجع نفسه، المكان نفسه.
- 18- احمد زكي بدوي، مرجع سابق، ص 371.
- 19- المرجع نفسه، ص 359.
- 20- ألبير كامو، الإنسان المتمرد، ترجمة: نهاد رضا، منشورات عويدات - بيروت، ط3، 1983، ص 18 .
- 21- المرجع نفسه، المكان نفسه.
- 22- عبد الرحمن عيسوي، مبحث الجريمة (دراسة في تفسير الجريمة والوقاية منها)، دار النهضة العربية-بيروت، 1992، ص 81.
- 23- احمد زكي بدوي، مرجع سابق، ص 90 .
- 24- المرجع نفسه، المكان نفسه.

- 25- عبد الرحمن عيسوي، مرجع سابق، ص 24 .
- 26- محمد عاطف غيث و آخرون، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب-الإسكندرية، 1979، ص 94 .
- 27- العنف الأسري، مرجع سابق، ص 18.
- 28- عدنان الدوري، أسباب الجريمة و طبيعة السلوك الإجرامي، منشورات ذات السلاسل- الكويت، ط2، 1984، ص212-213.
- 29- المرجع نفسه، ص 213 .
- 30- عبد اللطيف محمد خليفة، دراسات في علم النفس الاجتماعي، المجلد الأول، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع-القاهرة، 1998، ص 307 .
- 31- محمد سلامة آدم و آخرون، علم النفس الطفل، مديرية التكوين، وزارة التعليم الابتدائي و التقويمي- الجزائر، 1973، ص154.
- 32- معن خليل عمر، علم المشكلات الاجتماعية، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1998، ص 178.
- 33- محمد سلامة آدم و آخرون، مرجع سابق، المكان نفسه.
- 34- محمد سلامة محمد غباري، الانحراف الاجتماعي ورعاية المنحرفين ودور الخدمة الاجتماعية معهم، المكتب الجامعي الحديث-الإسكندرية، 1998، ص 83.
- 35- فوزية عبد الستار، مبادئ علم الإجرام والعقاب، دار النهضة العربية للطباعة و النشر-بيروت، 1978، ص54.
- 36- محمد سلامة محمد غباري، مرجع سابق، ص 83.
- 37- علي محمد جعفر، الأحداث المنحرفون، المكتب الجامعي الحديث -الإسكندرية، 1998، ص 212-213.
- 38- عبد الرحمن عيسوي، اضطرابات الطفولة والمراهقة، دار الراتب سوفتير- بيروت، ط1، 2000، ص 24.
- 39- صالح محمد علي أبو جادو، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة-الأردن، ط2، 2000، ص 47.
- 40- ديفيد فونتانا، الشخصية والتربية، ترجمة: عبد الحميد يعقوب و آخرون، مطابع التعليم اربيل-العراق، 1986، ص156.
- 41- بول موس و ج. كونجر كانون، أسس سيكولوجية الطفولة والمراهقة، ترجمة: احمد العزيز سلامة، مكتبة الفلاح-الكويت، (د.ت)، ص271.
- 42- صالح محمد علي أبو جادو، مرجع سابق، ص ص 50-51.
- 43- علي محمد جعفر، مرجع سابق، ص 30.
- 44- عدنان الدوري، مرجع سابق، ص ص 181-182.
- 45- بدر الدين علي، عرض عام لتطور النظريات المتعلقة بسببية الجريمة، النظريات الحديثة في تفسير السلوك الإجرامي، أبحاث الندوة العلمية السادسة، الخطة العربية الأمنية الوقائية العربية الأولى، المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب الرياضي-السعودية، 1987، ص24.
- 46- مصطفى التير، مرجع سابق، ص 40.